من مذكرات الفنان الكبير محمد مرشد ناجي..

حياة الفنان الجنوبي محمد مرشد.. قصة حزينة أبكتني!

الأمناء كتب/ أحمد مليكان:

متى وأين وكيف كانت حياته؟

نقطة البداية

متى وأين وكيف كانت حياتك في الزمان والمكان؟ وما هي أبرز ملامح الطفولة، وظروف النشأة والتكوين اجتماعيا ودراسيا؟

يقول المرشـــدي إن الحديث حول البدايات بما فيها الطفولة والنشـــأة والتكوين الوجداني والثقافي والفني حديث بطبعه ذو شجون، ولا أتصور اســـتيعابه في هـــذا الحـــوار وإنما سأحاول التذكر.

كُتب عـــلى أمي أن تلدني في بيت متواضع مبني من الطين في ضاحية الشيخ عثمان، مدينة عدن، وكان ذلك في 6 نوفمـــبر 1929م، ولقد ولدت وترعرعـــت وانتميت إلى أسرة فقيرة ومتواضعة الإمكانيات المعيشية جدا، فالوالد كان يعول أسرة من ستة أفراد كونه متزوجـــا من امرأة أخرى وكان مصدر دخله الوحيد أجر يومي زهيد للغاية، هـــذا إذا توفر العمل له، ولكن الله ســـبحانه وتعالى قد أعطاني أمًّا وهي بكل المقاييـــس أم نموذجية، إذ أنهـــا تميزت بالقدرة المدهشـــة على التضحيـــة والعطاء الســـخي والبذل لجميع أفراد الأسرة والأهل والأقارب وحتى الجيران، بالنســـبة لي تحديدا كانت تخصني بالكثـــير والكثير من التضحيـــة والعطـــاء الجميل ومن غير حدود بحكـــم أني ابنها الوحيد والأصغر، كما تميـــزت أمي بالفطنة والـــذكاء الباهر فضلا عـــن طاقتها العجيبة عـــلى تحمل مختلف ظروف وصعوبـــات الحياة خاصـــة حياتنا الأسرية.

بوجـــود هـــذه الأم العظيمة في حياتي لم أحس عـــلى الإطلاق بذرة تعـــب أو عناء أو مشـــقةٍ في مرحلة طفولتي، حيث كنت محاطًا من قبلها بالحب والحنان والرعاية وكل طلباتي مســـتجابة، ولقد اســـتطاعت أمي بتضحياتها أن تسد فجوات معيشية واجتماعية جمـــة في حياة أسرتنا، وحيـــث كانت مهتمـــة ببيع وشراء المواشي وبيع البيض البلدي والحليب الطازج.

في ظـــل أمي وتحـــت جناحيها عشـــت طفولتي الأولى مثل ســـائر الأطفـــال الذين ينتمـــون إلى أسرة ميســـورة الحال بعـــض الشيء في الشيخ عثمان، أما أول مراحل حياتي التعليمية فقد بدأت بالتحاقي بكتاب الفقيه أحمد الكائن في حارتنا، وفيه تعلمـــت وحفظت وختمـــت القرآن الكريم، وبمناسبة نجاحي الأول هذا أقيم لي احتفال رائـــع وجرت العادة عـــلى إقامته لكل طفـــل ينجز تعلم وحفظ وختم القرآن يسمى (الزينه) وهو تقليد طيب يسعد الطفل الناجح والأهل الذين يفاخرون بابنهم.

وبعدهـــا التحقـــت بالمدرســـة الحكومية الابتدائية سنة أولى وخلال الســـنوات الأربع الدراسية للمرحلة الابتدائية وكنت من التلاميذ المتفوقين في دراســـتهم وكان ترتيبـــي دائما من الســـبعة الأوائل، وكان نجم هذه المرحلة الزميل والصديق الفقيد محمد سعيد مسواط - رحمه الله - والواقع أن هذه الفترة تعتبر من أحلى وأجمل أيام عمري وأكثرها متعة وسروراً.

إلا أن هـــذا لا يعني بأي حال خلو طفولتي من المشـــقات والصعوبات تخيل مثلاً أن تمشي حافي القدمين وتحت وهج الشمس ضاحية الشيخ عثمان الحـــارة جدًا لعدة أميال يوميًا وذلك بغرض توصيـــل وجبة الغداء لوالدي الـــذي كان يعمل في أحواض ملاحات الملح وتمسى المملاح، وهناك كثير من قصـــص الويلات والأوجاع الرهيبة.. إنها لحظة من أكثر وأشـــد لحظاتي لأننـــي في الواقع اعتبرتها لحظة انقلابيـــة فاصلة بين طفولة وعيـــش مقبـــول وإن كان في حده الأدنى وبين طفولة وعيش صعب بل مستحيل الاحتمال.

صدمة أول انقلاب

فيما كنت أنهي ســـنتي الرابعة والأخـــيرة للمرحلـــة الابتدائية وأنا فرحـــان للغاية بإكمالي لدراســـتي للمرحلة المتوسطة اللاحقة وبالتالي كي أصبح كاتبا - أي كراني كما يطلق عليه في عدن - يشـــار إليه بالبنان تحقيقاً لرغبـــة وحلم أمي التي بذلت الغالي والنفيـــس كي تراني وأنا في هذه الوظيفة، إذ كنت أحس برغبتها وأمنيتها الجارفـــة تلك حينما كانت تتأملني بوجهها الاســـمر وبعينيها السوداويين وبابتسامتها اللؤلؤيـــة وأنا أذاكر وأنجز دروسي المدرســـية عـــلى ضـــوء الفانوس إذ لم يكن التيار الكهربائي قد وصل إلى مدينتنـــا بعـــد، المهم أنـــه في أحد الأيـــام لدى عودتي من المدرســـة إلى البيـــت وكنت فرحـــا أردد بعـــض الألحـــان القديمة إذا بي أفاجـــأ بعـــدد من النـــاس بعضهم من الأهل والأقـــارب مجتمعـــون على غير العادة يشـــكلون حلقات على مساحة قرب باب البيت كان المنظر غير اعتيادي أو مألوف بالنسبة لي وعلى الفـــور أمام ما شاهدته من منظر انقبض قلبـــي وارتجفت أوصالي واحتبس اللحن في حلقي حيث نشـــف ريقي وغاب صوتي وداهمني شـــعور جارف بالخوف والحزن.

وببطء خطوات ثقيلة تقدمـــت مـــن تجمع النـــاس انظر اليهم بعينين مدهوشـــتين خائفتين وقد تضاعفت دهشـــتي ومخاوفي اكثر حينما حـــاول بعضهم معاملتي بطريقة لطف واحســـن مـــن المعتاد عندما اخذ علي حقيبتي المدرســـية فيما حاول البعض الاخر المسح على شـــعر رأسي بحنان جزيـــل كل تلك التصرفات الكريمة والودودة جعلتني اشـــعر ان وراءها شيء خطير وانها

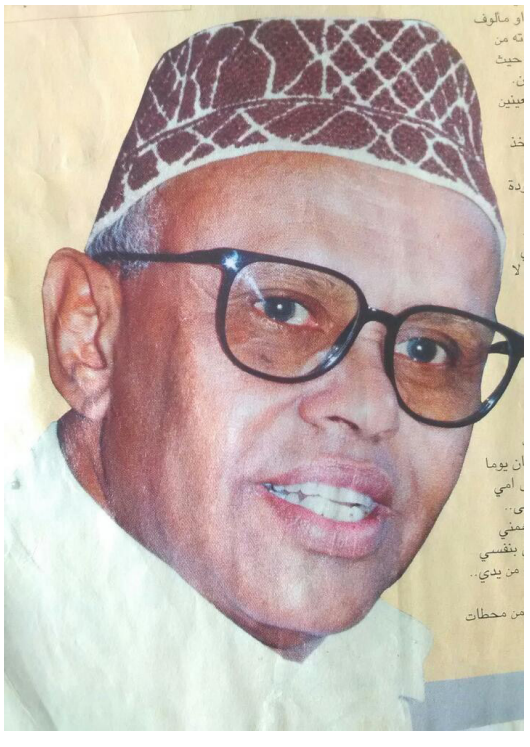

هـــي تهيئة لي لمعـــرف مصاب جلل حصل في اسرتنـــا وكان حين تقدم احد الرجال نحـــوي وارجحهم عقلا ليلقي على مسامعي نبأ الكارثة قائلا :» البقاء لله يـــا ابني محمد وكل نفس ذائقة المـــوت لا محاله وهذه هـــي إرادة وقضاء الله وأنت ولد متعلم وتعرف وتفهم القـــرآن وتؤمن باللـــه وقدره خليك شجاع وبطل وربنا معك فأدركت لحظتهـــا أن العزيزة الغاليـــة أمي قـــد توفيت ولن أراها».

كيف تقبلت الفاجعة؟

لقد كانت صدمة أو مصيبة حلت بي لحظتها ثم أحسست بدوار رهيـــب وببرودة مباغتة تسري في جسمي النحيل وعرق يسيل من كل خلاياي ولم أعد أرى شـــيئا وأغشي عليّ وسقطت على الأرض فاقـــد الوعي كان يومًا أغبر وكانت لحظة داكنة مظلمـــة وعندمـــا أفقت من غيبوبتي رأيت نعش أمي الغالية محمولا على الأكتاف ومشيت وراء النعـــش مذهـــولاً أعمى ولقد داهمني شـــعور جارف بالوحشية والخوف ولم أتمالك نفسي وحاولت أن أرمي بنفسي إلى جانبها لولا أن الأهل شـــدوني من يدي وحملوني بعيد عن القبر.

برغم فداحة الصدمـــة التي ألمت بي وأنـــا لم أزل طري العود كما يقال أتممت وبنجاح دراســـتي الابتدائية وبدأت الاستعداد كي التحق بالمدرسة الحكومية المتوســـطة أي الإعدادية ومع قلة المدارس المتوســـطة إلا أنني كنت على ثقة من قبولي في إحداها لما أحرزته من مســـتوى ونجاحي في دراســـتي الابتدائية لكن كانت هناك مفاجأة مخبـــأة تنتظرني لتصدمني بعد صدمة موت أمي أني قد تجاوزت سن القبول القانونية وعلى الرغم من جميع زملائي الذين قبلوا بالمدرســـة المتوســـطة كانوا في ســـني بل ان بعضهم كانوا اكبر ســـنا مني وفيما بعد لاحقـــا عرفت ان المحســـوبيات والوســـاطات الشـــخصية قد لعبتا دورا حاســـما في عدم قبولي وقبول الآخرين الأقل مستوى دراسيا ونجاحا والأكبر ســـنا ولا أكتـــم للقارئ أنني صعقت وقتها مـــن تلك النتيجة رغم تفوقي وشعرت بالحزن والقهر يجثم فوق صدري وانا اجد نفسي مطرودا في الشـــارع بعد ان فقدت الارضية التي كنت اقف عليها في الحياة وعلى الرغم من احســـاس القهر الا انني لم استســـلم لهذه النتيجـــة ولقد كانت القضية عنـــدي اهم واكبر باعتبارها موقف وفاء واحـــترام والتزام ادبي بـــضرورة تنفيذ وتحقيـــق حلم امي الشـــخصي في أن أواصل الدراســـة وأصبح كاتبا مرموقا.